دروس في تفسير القرآن الكريم

السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة التكاثر



المركز الإسلامي للدراسات

تفسير سورة
التكاثر

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة التكاثر

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1)

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِـرَ (2)

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3)

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5)

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6)

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

صدق الله العلي العظيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

وبعد.. فإن سورة التكاثر سورة عظيمة ومباركة، وبالغة الأهمية، لأنها تتحدث عن ظاهرة عامّة تصيب المجتمع البشري، وتلحق به ضرراً بالغاً، وخطيراً..

وقد ظهرت في الناس منذ العهود الأولى، ولسوف تبقى ـ كما يبدو ـ إلى آخر الزمان ـ وما هي إلا منطق منحط، يهيمن على الإنسان، ويصدّه عن الحق، وينسيه الآخرة، ويسقط معنى الإيمان بالتوحيد والألوهية من حياته..

وهو منطق الاعـتداد بالكثرات، لتكـون هي المقرر والمدبر، والمهيمن،

والحاكم، وهي المرجعية التي لا بد منها، ولا غنى عنها، لإنسان نسي ربه، وفقد المعايير، وأُتْخِم بالأوهام والأحجام.

وما التكاثر في الحقيقة إلا اعتبار الأعداد والكثرات أنها هي التي تمنح حتى أراذل البشر السلطة على الآخرين، بما فيهم الأنبياء والأوصياء، فضلاً عمن عداهم من أهل الخير والدين، والفكر، والعقل..

ثم تسخير القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لتسويق هذه الخزاية، وبسط هيمنة هذا النهج على الأمم والشعوب، لتكون نتيجة ذلك هي حكم الناس بالأهواء والمصالح الخاصة، والشهوات الرخيصة.. وبذلك يتم: محو أشرف الحقائق وأسماها، من ذاكرة الأمم والشعوب، وهي حقيقة التوحيد والنبوة، والإيمان بالبعث، وبغير ذلك.

ثم تقويض الفضائل والقيم، والأخلاق الحميدة من الواقع الإجتماعي العام.

وهذه إحدى الدواهي العظمى التي جرها هذا التكاثر على المجتمع البشري كله، مغلَّفاً بشعارات مبهمة، وبراقة، وخادعة، مثل شعار: الديمقراطية، وحرية الرأي، وحكومة الشعب، وما إلى ذلك..

بل أصبحت الكثرات هي المعيار، ليس فقط في اختيار الحاكم وأركان حكمه، بل هي المعيار حتى في اختيار رؤساء البلديات ومجالسها، بل هي المعيار حتى في أصغر أمر أو قرار، ولو كان بين ثلاثة أشخاص في أي موقع، وأية مؤسسة، أو تجمع، صغير أو كبير.. وتصبح الأحجام الأخرى في

المواقع المختلفة دمى طيِّعة في خدمة الكثرة التي هي أكبر منها.

وقد عالجت سورة التكاثر هذه الظاهرة بالرفض والإدانة، والتقبيح.

ومن جهة أخرى، فإن سورة التكاثر هي إحدى السور الصغار المكية، وهي في إعجازها، وعمق مضامينها، ودقـة معانيها كسائر السور القرآنية، صغيرها وكبيرها، تتحدى جميع الخلائق بما تضمنته مـن حقائق، وألمحت إلـيه من دقائق.. لا ينالها إلا من خوطب بالقرآن، وهم النبي «صلى الله عليه وآله» وأهل بيته، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً..

وقد شملتني العنايات الإلهية الغامرة، وهيأت سبل التوفيق للتداول مع بعض الإخوة الأكارم فيما ظهر من معان، ظننت أنها قد أشير إليها في هذه السورة المباركة بنحو أو بآخر.. مع إلحاحي بالاعتراف بقصوري وعجزي. وليكن ضعفي هذا هو عذري للقارئ الكريم..

وما تضمنه هذا الذي أقدمه للقارئ هو غاية جهد العاجز، من الحاضر الناجز..

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

جبل عامل ـ عيثا الجبل (عيثا الزط سابقاً) ـ قضاء بنت جبيل

حرر بتاريخ 30/شعبان /1437 هـ.ق.

الموافق 6/حزيران/ 2016م.ش.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفصل الأول:

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ

هل سورة التَّكَاثُرُ مكيَّة؟!:

قيل: أجمع المفسرون على أن سورة التكاثر نزلت في المدينة، ما عدا الطبرسي في مجمع البيان.. وورد في الروايات ما يدل على أن سورة التكاثر مكية، وفي بعضها: أنها مدنية.

والروايات هي التالية:

1 ـ إن هـذه السورة نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلَّالاً، عن قتادة[1]. فالسورة مدنية.

2 ـ قيل: إنها نزلت في فخـذ من الأنصـار، تفاخـروا. عن بريدة[2].. فالسورة تكون مدنية أيضاً.

3 ـ قيل: نزلـت في حيين من قريش: بني عـبد مناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، تكاثروا، وعدوا أشرافهم، فكثرهم بنو عبد مناف.

---

(1) مجمع البيان (ط الأعلمي) ج10 ص431.

(2) نفس المصدر.

ثم قالوا: نعدّ موتانا حتى زاروا القبور، فعدوهم، وقالوا: هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، فكثرهم بنو سـهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية. عن مقاتل والكلبي[1].

وهذا يدل على أن السورة مكية.

وقال العلامة الطباطبائي «رحمه الله» عن سورة التكاثر: «السورة بما لها من السياق تحتمل المكية والمدنية»[2].

4 ـ لما نزلت **﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾**[3].. قال أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله»: عن أي نعيم نُسأل؟!

إنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسيوفنا على عواتقنا.

فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: إنه سيكون[4].

ويشير قولهم: «وسيوفنا على عواتقنا» إلى الجهاد الذي كانوا يمارسونه، وإنما كان ذلك في المدينة.

ونقول:

---

(1) مجمع البيان ج10 ص431.

(2) تفسير الميزان ج20 ص351.

(3) الآية 8 من سورة التكاثر.

(4) الدر المنثور (ط سنة 1414 هـ.ق) ج8 ص613 و (ط دار المعرفة) ج6 ص388 عن عبد حميد، وأبي يعلي، ومجمع الزوائد ج7 ص142 وفتح القدير ج5 ص490.

ألف: أما بالنسبة لما ذكر عن بني عبد مناف، وبني سهم فهو غير مقبول للأسباب التالية:

أولاً: إن عبد مناف هو أبو هاشم.. وهاشم وبنوه هم خيرة الناس في زمانهم، وهم أناس عقلاء وفهماء، وأهل شهامة، وسؤدد، وكرم، وأهل دين على العموم، وفيهم أمثال عبد المطلب، وأبي طالب، وحمزة، وجعفر، والزبير بن عبد المطلب، والحارث بن عبد المطلب، وابنه عبيدة وغيرهم، وكانوا على العموم على دين الحنيفية.

فلا يعقل صدور هذا العمل السفهي منهم.

إلا إذ فرض أن واحداً ممن شذَّ عن سيرة ومسار بني هاشم كأبي لهب، قد تبارى مع أحد الذين هم على شاكلته في أمر تافه كهذا.

ثانياً: ما هو معيار الشرف، ومواصفات الشريف التي أوجبت اعتبارهم هذا شريفاً، وذاك ليس بشريف، التي يعتمدها بنو سهم، أو غيرهم من أهل الجاهلية؟! هل هم أصحاب الأموال؟! أم هم الأقوياء الذين يظلمون الناس؟! أم هم أهل الدين والإيمان، وأهل القيم الإنسانية والأخلاقية؟!

يبدو لنا: أن الأموال الكثيرة هي المعيار.. ولذا قيل عن أبي طالب «عليه السلام»: إنه ساد فقيراً، وما ساد فقير قبله[1].

وإن كان الشرفاء بنظرهم أولئك الطغاة القساة القتلة، الذين ينتهكون المحارم، ويظلمون الضعفاء، فكيف يعترف الأخيار الأبرار، والكبار من

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص14.

بني هاشم بالشرف لأمثال هؤلاء؟!

وكيف يعترف الدعاة إلى حلف المطيبين الذين وضعوا أيديهم في الطيب، وتحالفوا على نصرة المظلومين، ومعونة الضعفاء، والتزام القسط والعدل؟! كيف يعترف هؤلاء بالشرف لمن وضعوا أيديهم في آنية مملؤة دماً، وتحالفوا على الظلم والعدوان، فسمي حلفهم حلف لعقة الدم؟!

ثالثاً: إن بني سهم لم يكونوا كبني عبد مناف في الشرف والكرامة والعزة، فما معنى أن يرضى بنو هاشم بمفاخرتهم؟! وأية خصوصية لبني سهم على بني تيم، وعدي، وسواهما؟!

ب: بالنسبة لقولهم: إن اليهود كانوا يتفاخرون، أو يفتخرون على غيرهم بكثرة العدد نقول:

أولاً: لماذا يُنزل الله تعالى سورة يخاطب فيها اليهود في أمر ليس هو من الاعتقادات، وإنما هو ممارسة خاطئة وغير عقلائية، ولليهود ممارسات عظيمة الخطر، شديدة الضرر، تحدث عنها القرآن في بعض آياته، ولم يخصص لها سورة على حدة، كما خصص لهذا الأمر الذي لا يصل في خطره وضرره إلى تلك الجرائم والعظائم.. فإنهم كانوا يقتلون النبيين بغير حق، ويكذبونهم، ويسعون في إطفاء نور الله، ويفترون على الله الكذب، وغير ذلك كثير؟!

ثانياً: يقول النص المتقدم: إن تكاثر اليهود ألهاهم، حتى ماتوا ضلّالاً، وهذا أمر غريب، أن يكون سبب موتهم ضلّالاً هو قولهم: نحن أكثر من بني فلان الخ..

ثالثاً: هل يُفهم من قول مقاتل عن اليهود ألهاهم قولهم: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، حتى ماتوا ضلَّالاً: أن اليهود ظلوا يرددون هذه العبارة الواحدة طيلة حياتهم حتى أدركهم الموت؟!

ولماذا هذا التكرار والإصرار؟!

أم أنهم كرروا هذه الكلمة، فاستغرقت جميع لحظات حياتهم، وشغلتهم حتى لم يجدوا فرصة للنظر في أمور دينهم، فماتوا ضلَّالاً؟!

ج: بالنسبة لقولهم: إنها نزلت في فخذ من الأنصار، كما عن بريدة يلاحظ:

أولاً: لا سند لهذا القول ليمكن النظر فيه.

ثانياً: هل هذا الفخذ من الأنصار ـ ولا ندري لماذا لم يشاركهم المهاجرون أيضاً ـ كان له من الخطورة وعمق التأثير، وشموليته ما يوجب نزول سور تخاطب عامة الناس إلى يوم القيامة بهذه الشدة والحدة، وبهذه التهديدات الصريحة والصادمة؟!

د: يرى بعضهم: أن مكية هذه السورة أصح، لشبهها الكبير بالسور المكية.

أولاً: إن التلاقي في المضامين لا يعني الإتفاق في موضع النزول.. وهناك سور مدنية تلتقي مضامينها مع سور مكية، مثل سورة الزلزلة، أو الرعد، وغيرهما.

ثانياً: إن المجتمع المدني لم يدخل في الإسلام دفعة واحدة، وإنما كان ذلك على نحو التدرج، كما أن هناك مجتمعات وقبائل حول المدينة تأخر إسلامها عن وقت هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» لمدد متفاوتة.. فلماذا لا يخاطبهم الله تعالى بنفس المضامين التي خاطب بها إخوانهم من مشركي مكة؟!

فإنهم كانوا على الشرك مثلهم.

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ:

إن سورة التكاثر تنعى على الناس وتدين، وتقبح اهتمامهم بأمر موهوم، وهو التكاثر اللهوي الذي يقبح صدوره من العقلاء، في المجالات المختلفة، كالأموال، والأولاد، والرجال، والجاه، وغير ذلك من متاع الدنيا وزينتها، فإن هذا السلوك ممقوت ومبغوض لله تعالى جملة وتفصيلاً، لما له من آثار خطيرة وكبيرة.

وبعدما تقدم نقول:

هنا أمور يحسن لفت النظر إليها، وهي:

أولاً: قالوا: إن هناك من قرأ: «آلهاكم»، وهناك من قرأ: «أألهاكم» بدعوى وجود همزة استفهام مسهلة، كما في قوله ﴿**آلذَّكَرَيْنِ**﴾[1]، أو غير مسهلة، كقوله تعالى: ﴿**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي**﴾[2].

ونرى: أن هذه القراءات لا عبرة بها، فإن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال عن القرآن: إنه لا يهاج ولا يحوَّل بعد اليوم[3].

(1) الآيتان 143 و 144 من سورة الأنعام.

(2) الآية 116 من سورة المائدة.

(3) راجع: كنز العمال ج2 ص328 و (ط مؤسسة الرسالة) ج2 ص519 عن ابن الأنباري في المصاحف، وابن جرير، وجامع البيان ج27 ص104 و (ط دار

وروي عن الإمام الباقر «عليه السلام» قوله: إن القرآن واحد نزل من عند الواحد[1].

وروي عن الإمام الصادق «عليه السلام» قوله: «اقرأوا كما عُلِّمتم»[2]،

الفكر) ج27 ص234 والتبيان للطوسي ج9 ص495 ومجمع البيان ج9 ص364 والتفسير الصافي ج5 ص122 وج7 ص90 ونور الثقلين ج5 ص215 وكنز الدقائق (تفسير) ج13 ص29 والدر المنثور ج6 ص157 وفتح القدير ج5 ص155 وتفسير الآلوسي ج27 ص141 وتفسير البغوي ج4 ص282 وتفسير الثعلبي ج9 ص207 وتفسير الميزان ج19 ص128 والمحجة البيضاء ج2 ص262 والقراءات القرآنية: تاريخ وتعريف ص99 عن كولد تسيهر ص55 والتمهيد في علوم القرآن ج1 ص289 و 322 وج2 ص110 عن ابن جرير، وعن القراءات الشاذة ص151 وراجع: مستدرك الوسائل ج4 ص226 وفتح الباري ج6 ص228 وعمدة القاري ج15 ص150 والمحرر الوجيز ج5 ص244 والجامع لأحكام القرآن ج17 ص208 وإمتاع الأسماع ج4 ص325.

(1) الكافي ج2 ص630 ومرآة العقول ج12 ص520 والبرهان (تفسير) ج1 ص47 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص168 وكنز الدقائق (تفسير) ج2 ص245.

(2) كنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج2 ص339 والنشر في القراءات العشر ج1 ص33 والقراءات القرآنية: تاريخ وتعريف ص82 وراجع: مناقب آل أبي طالب ج2 ص42 و (ط المكتبة الحيدرية) ج1 ص321 وإمتاع الأسماع ج4 ص268

و «اقرأوا كما يقرأ الناس»[1].. في إشارة إلى عدم التبديل والتغيير، والزيادة أو النقيصة، بحجة أن فلاناً قرأ بهذا النحو، وذاك قرأ بنحو آخر..

ومن الواضح: أن هذه القراءات المزعومة هي التي أسست ولا تزال بصورة مقنَّعة لمقولات التحريف الخبيثة، التي يجهد أعـداء الدين والحـق لإلصاقها بالإسلام في أعز شيء فيه، ومـا هو العمود الفقري الذي ترتكز نبوَّة نبينا «صلى الله عليه وآله» على الإعجاز الكامن فيه.

ثانياً: إنه لا قيمة لقراءة غير قراءة المعصوم، وأكثر من تنسب إليهم هذه القراءات لم يروا النبي «صلى الله عليه وآله» ولم يسمعوا منه، وأكثرهم ولد بعد استشهاده «صلى الله عليه وآله» بعشرات السنين..

وبعض الذين تنسب إليهم بعض القراءات، وكانت له وجاهة لم يكن حافظاً للقرآن، فيعدون أخطاءه قراءات له، صوناً لماء وجهه، وجرأة منهم على الله، وعلى كتابه.

ثالثاً: إن الآية النازلة من عند الله، إن كانت خالية من همزة الاستفهام، فلا معنى لإضافة الهمزة لها، وإن كانت نزلت مع همزة الاستفهام، فلماذا

وبحار الأنوار ج40 ص156 وج89 ص53 ومسند أحمد ج1 ص106.

(1) راجع: الكافي ج2 ص462 وبصائر الدرجات ص193 والمحجة البيضاء ج2 ص263، والوافي ج5 ص273 وكتاب الصلاة من مصباح الفقيه ص275 والتمهيد ج1 ص289 ووسائل الشيعة ج4 ص821.

حرِّفت وحذفت من قبل عامة الناس، مع كون الآية تنزل مرة واحدة، ولا يتعدد نزولها بتعدد القراءات؟!

وإذا كان قرَّاء القرآن وحفَّاظه يُعَدّون بالمئات والألوف في عهد النبي «صلى الله عليه وآله» وبعده، فقد استشهد مئات منهم في عهد أبي بكر، وحضر منهم صفين ثلاثون ألفاً(1)، ثم كانت ثورة ابن الأشعث على الحجاج، وكان عامة جنده من القراء، حتى سميت حركته: «ثورة القرَّاء» ـ إذا كان الأمر على هذا الحال ـ.

فلو كان لهذه القراءات أصل في النقل عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لكانت جزءاً من ثقافة وقراءة هذه الألوف المؤلفة، ولم تنحصر في أفراد معدودين رعف الدهر بكثير منهم بعد سنين تعد بالعشرات..

فهذه القراءات تكاد تكون افتراءات، إن لم نقل: إنها كذلك.. ﴿**نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾(2).

البسملة:

قلنا: إن آية: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ جزء من جميع السور، باستثناء سورة التوبة.

وقد تقدم تفسيرها في سورة الفاتحة.. فلا نعيد.

---

(1) صفين للمنقري ص188.

(2) الآية 143 من سورة الأنعام.

أَلْهَاكُمُ:

لا نريد أن ندخل في تفاصيل كثيرة حول معنى «اللهو»، ونقتصر على ما نستفيده من كلمات أهل اللغة في ذلك، وهو كما يلي:

1 ـ اللهو أمر عارض:

ليس للهو حقيقة موضوعية لها ثبات وبقاء يمكن أن تسهم في حل مشكلات الحياة، فهو حالة عبثية ينتهي ويتلاشى.. إذ هو صرف النفس عن شيء إلى شيء من دون تعلق غرض له في المصروف إليه..

فالتلهي إشغال عن الأهم بما لا أهمية له، بل بما هو خواء وفراغ.. فهو لا يشفي مريضاً، ولا يشبع جائعاً، ولا يبني بيتاً، ولا يغيث ملهوفاً.. ولا.. ولا..

بل اللهو يعطل الطاقات ويفني العمر، ويفوِّت الفرص، وليس هو من مقاصد العقلاء، ولا هو من طموحاتهم، أو من غاياتهم في الحياة، ولا جدوى ولا اثر له في بناء المستقبل..

2 ـ اللذة في اللهو:

وفي اللهو أيضاً درجة من اللذة، وحالة من الأنس والارتياح، ناشئة من اليسر والسهولة، ولكنها لذة موهومة، وأنس هو في الحقيقة بمثابة غيبوبة عن المشكلات، وتخلٍّ عن المسؤوليات، فاللذة لذة الفراغ، والتسويف والتضييع، وليست لذة الإنجازات، والسرور بثمرات الجهد، والزهو بنيل المراتب في السؤدد والكرامة، والعزة والشهامة.

أو فقل: إن لذة الجسد تكون في الطعوم، ونحوها، وفي المشمومات، والمرئيات، والمسموعات، والمحسوسات.. وليس في تخيل الكثرات لذة جسدية.

كما أنه ليس فيه لذة روحية، كلذة العلم، أو الكرم، ولذة هداية الناس، واللذة بالقرب من الله.. بل إن كون شيء قليلاً أو كثيراً، ليس فيه لذة للروح، ولا للجسد، ولا يشفي مريضاً، ولا يقضي حاجة.

3 ـ لا حكمة في اللهو:

وقد فسر اللغويون اللهو: «بأنه الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة»، ربما لأن الإنسان الحكيم لا يصرف عمره فيما لا يجلب نفعاً، ولا يدفع ضراً.

ونحن لا نوافق على هذا التعريف، ونقول:

بل هو على خلاف الحكمة، والحكمة تناقض اللهو، وتقتضي رفضه، لأن الحكمة هي وضع الأمور في مواضعها الصحيحة البناءة، الموصلة إلى أهداف معينة، وليس في اللهو هدف.. بل قد يوجب تضييع الأهداف، وتفاقم المشكلات، وربما أكثر من ذلك، كما ألمحنا إليه فيما تقدم برقم 1 و 2.

لماذا أَلْهَاكُمُ؟!:

ويلاحظ: أنه تعالى قال: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ ولم يقل مثلاً: التهيتم، أو تلهيتم بالتكاثر، أي أنه تعالى يقول: إن التكاثر هو الفاعل للإلهاء.

ولو قال: تلهيتم لانعكس المعنى، ليصبح هكذا: أنتم ذهبتم إلى التكاثر لكي تتلهو به.. إن كان البديل المفترض هو تلهيهم.

كما أن كلمة التهيتم ليس فيها ما يدل على الداعي لهم إلى ذلك، هل حصل

هذا الالتهاء باختيار منهم، أو أن أحداً من الناس، أو غيرهم دعاهم إلى ذلك؟!

فظهر: أن الآيـة تريد أن تقول: إن التكاثر هـو الذي يجـذب الناس إلى التلهي به.

التكاثر:

1 ـ والسؤال هو عن حقيقة التكاثر الذي تكون له هذه الجاذبية.

ونجيب:

بأن المراد به المغالبة بالكثرات.. وهذا هو سرُّ الجاذبية فيه، فإن المغالبة محببة لبعض الناس، لأن الغلبة على الآخر التي يسعون إليها تحدث لهم زهواً، أو شعوراً كاذباً بالتفوق والعظمة، وترضي الأنانية وحب الذات.

وإذا كانت المغالبة بالكثرات كانت أكثر متعة، حين يضيف هذه الكثرات لنفسه على سبيل الادِّعاء تارة، كما في التكاثر بكثرة الرجال، أو كثرة الفرسان، أو الأشـراف في قومه.. أو على سـبيل الحقيقة كما لو كان التكاثر بالأموال والأولاد.

2 ـ إن كلمة تكاثر مثل كلمة تضارب أو تقاتل، تحتاج إلى طرفين، يكون التضارب والتكاثر بينهما، والألف التي في وسط صيغة تكاثر، وتضارب يقال لها ألف المفاعلة، أي أن الفعل من طرف، إذا استدعى فعلاً يماثله من طرف آخر، فقد حصل التفاعل.

3 ـ فالتكاثر أمر انتزاعي ينتزع من حالة معينة لا تقوم ولا تظهر إلا بطرفين، نظير الفوقية، فإنها تحتاج في قوامها إلى التحتية، والأكبرية، فإنها تحتاج

إلى الأصغرية.

والعناوين الانتزاعية ليس فيها مصلحة ذاتية، بل هي المعاني الحرفية، فليس فيها ما يمكن توظيفه في الأغراض الحياتية، وحل مشكلاتها، والتغلب على مشاكلها، وبلوغ غاياتها.

كما أنها لا تحمل معها أي لذة للروح، فإن الروح تلتذ بالعلم مثلاً، وبإنقاذ غريق، ودفع الظلم عن الضعيف، أو قضاء حاجة لمحتاج.

أما الشعور بالكثرات، من خلال تعدادها والتلهي بها، فلا تهتم له الروح، ولا تقيم له وزناً، لأنه لا يمثل غنى لها، ولا للجسد الذي تحل فيه.

والجمع بين اللهو وبين التكاثر، في هذه الآية أمر مهم، فإنها قد جاءت مناسبة لها كمناسبة الحكم لموضوعه.. فإن التكاثر هو الذي يتصف بالإلهاء وهو المناسب له أكثر من أي وصف آخر، لأن التكاثر لا فائدة فيه، وليس له هدف عقلائي، ولا مصلحة حياتية فيه، لاسيما وأنه أمر انتزاعي بملاحظة الأعداد، وزيادتها ونقيصتها.

هدف السورة:

وبعدما تقدم نقول:

أن المقصود في هذه السورة: هو التذكير بأن على الإنسان ان لا يلتهى عن مصيره وعن قضاياه الكبرى ويضحي بعمره، بإشغال وقته بالفراغ واللاشيء، وبأعمال صبيانية لا هدف ولا معنى لها.

وإلا، فإنه يكون قد عرَّض نفسه لأمر عظيم، وخطر جسيم، كما تدل

عليه التهديدات القوية، والمتعاقبة التي وردت في هذه السورة المباركة، إلى حد أن هذا التصرف غير المسؤول يؤدي إلى إنكار البعث، والحساب، ويكون من موجبات غضب الله، واستحقاق الجحيم.

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ:

يمكن أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾:

1 ـ أن التكاثر ألهاكم، واستمر هذا الإلهاء إلى أن أدرككم الموت، وصرتم في المقابر..

2 ـ ويمكن أن يكون المراد: إنكم تكاثرتم في أعداد الأشراف أو الفرسان في عشائركم، أو الأولاد، وامتد تكاثركم إلى حد أنكم ذهبتم إلى المقابر، وصرتم تعدون الأموات الذين لهم ارتباط بها تتكاثرون به.

فأي المعنيين أولى بالاعتماد في معنى الآية؟**!**

وقبل أن نجيب، نشير إلى أنهم أرادوا تأييد المعنى الأول بما رووه، من أن أعرابياً سمع هذه الآية (**﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾**)، فقال بعث القوم للقيامة ورب الكعبة[1].

ولعل سبب فهم الأعرابي هذا المعنى: أن الزائر هو من يذهب إلى موضع، ثم يعود منه.

---

(1) المحرر الوجيز ج5 ص518 وتفسير البحر المحيط ج8 ص505 وتفسير الآلوسي ج30 ص224 والتفسير الوسيط ج3 ص2925.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.. يفيد: أنهم يذهبون إلى المقابر، ثم يعودون منها.

وهذا متوافق مع قول أهل الأديان، من أن ثمة بعثاً، وعودة إلى الحياة، وخروجاً من القبور لأجل الحساب.

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع، غير أننا نشير إلى أن من الممكن أن يزور المقابر من يريد عدّ الأموات ليفاخر بهم، ثم يعود من المقابر إلى بيته، فلا دلالة فيه على تأييد القول الأول، فكلام هذا الأعرابي غير دقيق.

الآيات وعذاب القبر:

وعن أمير المؤمنين «عليه السلام» أنه قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يريد في القبر. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد البعث»(1).

ونقول:

أولاً: إن ما روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» هو الصواب الذي لا محيص عنه، فإن هذا الوعيد الإلهي الذي تكرر في الآيات، مع الفصل بكلمة «ثم» الدالة على التعقيب مع فصل وتراخ يتطابق مع عذاب القبر، ثم مع العذاب بعد النشر والحساب يوم القيامة..

ثانياً: يضاف إلى ذلك: أن من الواضح أيضاً: أن الجحيم التي يرونها ليست في الدنيا..

---

(1) تفسير مجمع البيان (ط الأعلمي) ج10 ص432.

ويتأكد ما قلناه بملاحظة: أن هذا التكاثر لا يقتصر على قوم دون قوم، ولا على جيل دون جيل، بل هو سارٍ في الأقوام والأجيال إلى يوم القيامة.

ثالثاً: إذا كان ما يخبر به الله تعالى واقع لا محالة.. ونحن نعلم: أن في المتفاخرين بالكثرات من مات، ومن يموت في الحال ومن سيموت في المستقبل، ولا يرى جحيماً في دنياه، فهذا الوعيد الإلهي يدلنا على: أنه لا بد أن يرى الجحيم بعد موته، في القبر، أو يوم القيامة، كما أخبر الله تعالى.

وبعدما تقدم نقول:

إن المعنى الثاني المتقدم هو المعتمد، وذلك لسببين:

الأول: إن الزائر، وإن كان يزور ثم يرجع من زيارته، فهذا لا يدل على البعث والحياة بعد الموت.

فإن الزائر الذي يرجع من زيارته هو الذي يذهب ويرجع باختياره.. مع كون رجوعه إلى نفس حياته الأولى، لا أن يبقى في القبر، ويعيش حياته البرزخية، ثم ينتقل إلى الآخرة التي لا تشبه الحياة الدنيا من قريب ولا من بعيد..

والزائر للمقابر هنا، هو الذي يختار الذهاب إلى المقابر ليعدّ الأشراف أو غيرهم من قومه.. ولكن من يموت، ويُحمل إلى المقبرة، لم يختر هو زيارتها، بل حُمل إليها قهراً.. بل إن علم أحد أنه إذا ذهب إلى المقبرة سوف يموت ويدفن فيها، لحرَّم على نفسه الذهاب إليها أبد الدهر.

الثاني: إنه تعالى لم يتحدث عن زيارة القبور التي هي جمع قبر، فإن الإنسان

قد يدخل إلى مقبرة فيها عشرات القبور، فيزور قبراً أو أكثر، ثم يعود.

بل تحدث عن زيارة المقابر، وهي جمع مقبرة، والمقبرة الواحدة منها قد تضم عشرات القبور، فزيارة هذه المقابر العديدة التي تحوي كل واحدة منها أعداداً كبيرة من القبور لا يكون إلا ممن يريد أن يستطلع أمراً على نطاق واسع جداً، ليخرج بحصيلة جامعة يميز فيها أصنافاً من الأموات عن بعضها، ليتكاثر بما يخصه منها.. في مقابل غيره الذي يتكاثر بأموات آخرين.

الفصل الثاني:

كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلا سَوْفَ

كَلا سَوْفَ:

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.. فكلمة «كـلَّا» حرف ردع. أي ارتدعوا عن هذا التكاثر الذي ألهاكم.

ومن معاني كلمة «كلَّا»: أنها بمعنى حتماً وحقـاً.. وهـذا المعنى يناسب التأكيدات الكثيرة المتلاحقة في هـذه السورة، فإن كلمة «حقـاً» فيها معنى التأكيد أيضاً، بلا ريب وشك.

ويبدو لنا: أنه إن أريد التأكيد على حصول النتيجة لهذا التلهي فهي بمعنى حقاً وحتماً سيقع، وسترون نتائج فعلكم.. وإن لوحظ انشغال الناس بالتكاثر، وأريد الردع عنه لكي يكفُّوا ويتوقفوا، فكلمة «كلا» للردع والمنع.

وكلمة «سوف» تفيد التسويف، وإعطاء الفرصة، انتظاراً لاستجابتهم وتوبتهم..

فعسى ولعل أن يرتدع أحد منهم، ويعود إلى رشده في هذه المهلة الزمانية التي ألمحت إليها كلمة سوف، حيث لم يقل: كلا ستعلمون، ليقال: إن السين حرف تنفيس، فيكون الفاصل بين ما بعدها وما قبلها لا يعتد به، وكأنه يشبه

أخذ المتكلم نفساً أثناء كلامه.

فهذه المهلة المستفادة من كلمة سوف، يمكن أن يستفدوا منها لمراجعة هؤلاء الناس، أو بعضهم، لحساباتهم.

وقد ينتهي الأمر بهم، أو ببعضهم إلى الهداية والتوبة، والعمل على تصحيح المسار.. حين يدركون أن هذا التكاثر قد يؤدي بهم إلى مخاطر لا قِبَل لهم بها، بل قد يؤدي بهم إلى غضب الله، وعذابه.

التأكيدات في سورة التكاثر:

إن نفس عدّ الأشراف في هذه القبيلة أو تلك ليس حراماً، من حيث هو عدّ. ولكن الأمر الخطر هو ما ينشأ عن حالة الإلتهاء بهذا العد التكاثري، مما يؤدي إلى التصلب في التزام الجحود والإنكار للحقائق العقائدية الأساسية..

ونحن في مقام التمهيد والبيان لهذه الحقيقة نود قبل أن نتابع حديثنا عن مضامين هذه السورة المباركة لفت النظر إلى كثرة التأكيدات في آياتها.

وإليك طائفة منها:

1 ـ إن نفس الوعيد الإلهي على أمر، دليل على مبغوضيته له تعالى، وعلى أن عواقبه سيئة.. فقد قال تعالى: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾.

2 ـ إن كلمة «كلّا» إذا كانت بمعنى حقاً فهي تأكيد آخر أيضاً.

3 ـ وقد أكَّد الله تعالى هذا الوعيد بقوله: ﴿**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾.. وهي آية تشتمل على العديد من التأكيدات.

4 ـ والتأكيد الثالث: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾.. وفي هذه الآية

تأكيدات عديدة أيضاً.

5 ـ التأكيد باللام التي هي جواب القسم المقدر.

6 ـ التأكيد باللام في لترونها.

7 ـ التأكيد بنون التوكيد الثقيلة في ترونها (التي هي تأكيد فوق تأكيد).

8 ـ التأكيد بإعادة الجملة بما فيها من تأكيدات مع لام القسم.

9 ـ إعادة الجملة مع نون التوكيد الثقيلة.

10 ـ ومع كون الرؤية هي عين اليقين.

11 ـ التأكيدات **المتعددة** في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾.

فكل ما تقدم يعطي: أن ثمة أمراً خطيراً جداً يكمن في هذه الكثرات التي أَلْهَتِ الناس، وأنه تعالى لا يتحدث عن حادثة أو حوادث عابرة، بل يتحدث عن ظاهرة عامّة.. فيها خصوصية خطيرة على وجودهم ومصيرهم، حتى استحقوا كل هذا الوعيد المتنوع، والمؤكد بهذه الأنواع المختلفة من التأكيدات.

فما هي هذه الخصوصية التي يريد تبارك وتعالى التحذير منها، وتخليص الناس من آفاتها؟!

ونجيب:

بأن من الممكن أن تكون هذه الخصوصية هي أن الكثرات التي ينسبها الناس إلى أنفسهم هي من قبيل الأموال والأولاد، والرجال، والعشيرة، وربما تفاخروا باختراعاتهم، وكثرة أسلحتهم، وطائراتهم، ودباباتهم، وغير ذلك.. فجعل هذه الأمور حتى لو كانت مدمرة، أو موهومة، أو غير ذات قيمة

وجدوى هي المعيار لمعنى الصلاح والهدى، والإستقامة، والنجاح، والفلاح.. وهي التي تلتمس السعادة فيها، وبها تحل المشكلات، وتبلغ الغايات سيكون بمثابة كارثة على الإنسان والإنسانية.

بل قد يتعاظم دور هذه الكثرات في فكر الناس إلى حد تصبح معه، وكأنها هي الإله الذي يُعبد، ألم تقرأ قوله تعالى: **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾**؟![1]. والكثرات، من حيث هي مجرد موهومات تمنح هذا الإنسان العاجز والضعيف شعوراً بالاشباع والغنى.

فيتوهم من لديه مال مثلاً: أن المال هو الذي يحل مشاكله، ويلبي حاجاته، ويبلغه آماله وغاياته، وهو الذي يشفيه، ويحميه، ويجمع حوله الرجال، وهو الذي يبني له الدور والقصور، ويمنحه المقامات، والوجاهات، ونفوذ الكلمة، وبه يسعد، ويخلد..

فهو إذن، في غنى عن الله، فلماذا يسلم قياده إليه، ويعتمد عليه، ويخضع لتشريعاته، ويلتزم بأوامره، وينزجر بزواجره؟!

فالكثرات تصبح ـ بنظره ـ هي الإله المدبِّر والحافظ، في حين أن هذه الكثرات هي الشيطان الكبير والخطير الذي يضل الناس عن طريق النجاة، ويرمي بهم في مهالك المسالك.

ولعل هذا كان هو السبب في نسبة الإلهاء إلى التكاثر الذي يشبه الشيطان

(1) الآية 7 من سورة العلق.

الذي يتسلل متخفياً إلى حياة الناس ليفسدها عليهم، ويذهب بسعادتهم، ويدمر مستقبلهم..

وهو المرض الخفي الذي لا يشعر المريض معه بالألم هو الأشر، والأخطر، والأضر، لأن الألم نعمة من الله، تنبه الإنسان إلى وجود خلل عليه أن يعالجه.

الكلام على نحو القضية الحقيقية:

ومن الواضح: أن المخاطب في هذه الآيات هو مطلق الإنسان، حتى لو لم يكن قد ولد بعد، فهو مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾. من قبيل القضية الحقيقية، لا الخارجية، لأن الخطاب لا يختص بالموجودين حين نزول السورة.

تَعْلَمُونَ:

إن المراد بالعلم في قوله «**تَعْلَمُونَ**» هو انكشاف الواقع لهم بصورة عملية وحقيقية، فلا يعود مجرد صورة ذهنية يحدثها الخبر، حتى لو كانت هذه الصورة يقينية، لتصبح وجوداً عينياً، خارجياً مُشَاهَداً.

ومن المعلوم: أن درجات انكشاف الواقع متفاوتة، ولها مراتب، والذي يعنينا من ذلك هنا ما يلي:

1 ـ أن بعض مراتب الظن يعدّها عامّة الناس علماً، وذلك على سبيل التسامح، ولا يجدون حرجاً في ترتيب الأثر على كثير من هذه الظنون.

2 ـ قد يتنامى هذا الظن ليصل إلى حد الاطمئنان، لتضاؤل احتمالات

الخلاف إلى حد كبير، لا يُعتد معه بهذا الاحتمال، ولا يُلتفت إليه، وربما غفلوا عن أصل وجوده.

3 ـ أن تزول احتمالات الخلاف، ليبلغ الأمر إلى اليقين. ويقال لهذه المرتبة: علم اليقين، وهو علم مستند إلى الدلائل والشواهد، ولو لم يتأكد ذلك بالمشاهدة، والحس المباشر.. كاليقين بوجود النار من رؤية دخانها.

4 ـ ثم تأتي بعدها مرتبة عين اليقين، وهي التي يصل فيها الأمر إلى درجة المشاهدة، كرؤية النار مباشرة.

5 ـ والمرتبة الأخيرة هي مرتبة حق اليقين، وهي: أن يحس الإنسان بالمعلوم مباشرة، كأن يدخل النار، ويعيش الألم في داخله منها.. وسيأتي الحديث عن هذه المراتب مرة أخرى إن شاء الله تعالى.

تأكيد جملة بجملة:

1 ـ وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ قد جاء لتأكيد مضمون الجملة السابقة، فإن كلمة «ثم» العاطفة تحمل معها معنى التراخي والتباعد بين المعطوف والمعطوف عليه..

وهي هنا لتأكيد ما قبلها بما بعدها.. فالفاء تفيد الإصرار على ما يجري تأكيده، وتفيد التراخي والتباعد بين الأمرين الحاصلين.

وهذا التباعد قد يكون مساعداً على هذا التأكيد على اعتبار أن العودة إلى أمر قد مضى وانقضى، ومرّ عليه وقت معتدّ به، يدل على أنه يحتل موقعاً متميزاً في الأهمية لدى المتكلم، فإن مرور الوقت يُضعف درجة حضوره،

والاهتمام به.. فإعادته إلى دائرة الضوء شاهد صدق على أهميته لدى المتكلم، وأنها بدرجة أكثر مما كان متصوراً.

2 ـ إن التأكيد بالجملة ﴿**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ يكون على نحوين:

الأول: أن يكون لفظياً.. فتكون بمثابة تكرار الكلام مرة بعد أخرى، لإفادة الحتمية، والإلزام، والحرص على حصول المضمون الوارد في الجملة الأولى بعينه.. كقولك: إذهب، إذهب. فإن كان المراد التأكيد اللفظي هنا، فتكون «ثم» لمجرد العطف، كالواو العاطفة.

الثاني: أن يكون مضمونياً، بمعنى أنه يضيف خصوصية في الجملة الثانية لم تكن في الأولى.. والأمر هنا كذلك، كما بينته الرواية المتقدمة عن أمير المؤمنين «عليه السلام»، حيث قال «عليه السلام»:

«ما زلنا نشك في عذاب القبر: حتى نزلت: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ إلى قوله ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ يريد في القبر ﴿**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ بعد البعث»[1].

1 ـ قلنا: إنه «عليه السلام» حين قال: ما زلنا نشك الخ.. لا يقصد أنه هو الذي يشك، بل الذين في محيطه هم الذين كانوا يشكون، إذ لو كان «عليه السلام» يشك لسأل النبي «صلى الله عليه وآله» عن هذا الأمر الذي لا يُعرف إلا من الأنبياء، وعليٌّ «عليه السلام» يهتم لمثل هذا الأمر، وليس كغيره..

وكان «عليه السلام» يقول: «وكُنْتُ إِذَا سَأَلْتُه أَجَابَنِي، وإِذَا سَكَتُّ عَنْه

(1) تفسير مجمع البيان (ط الأعلمي) ج10 ص432.

وفَنِيَتْ مَسَائِلِي ابْتَدَأَنِي»(1).. فما بالك إذا كـان من الأمـور الاعتقـادية التي تمس الإيمان؟!

فليس هذا التعبير ناظراً إلى الأفراد، بل إلى الجماعات على نحو الأعم الأغلب.. فهو نظير ما روي عن علي «عليه السلام» من أنه قال: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله»(2)، فإن أمير المؤمنين لم يكن ليضعف عن

(1) الكافي ج1 ص64 والإعتقادات في دين الإمامية ص121 وبصائر الدرجات ص218 والخصال للصدوق ص257 وتحف العقول ص196 والغيبة للنعماني ص82 والمسترشد ص235 والصراط المستقيم ج3 ص258 وبحار الأنوار ج2 ص230 وج36 ص275 وج40 ص139 والبرهان (تفسير) ج2 ص108 والمعيار والموازنة ص300.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص61 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص18 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج5 ص375 وبحار الأنوار ج16 ص232 و 340 وج19 ص191 وسنن النبي للطباطبائي ص23 ومستدرك سفينة البحار ج2 ص140 وراجع: مسند أحمد ج1 ص126 و 156 والمستدرك للحاكم ج2 ص143 ومسند ابن الجعد ص372 ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص56 ومسند أبي يعلى ج1 ص258 و 329 والفايق في غريب الحديث ج1 ص277 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج19 ص116 وج13 ص279 ونظم درر السمطين ص62 وبغية الباحث ص284 وكنز العمال ج12 ص419 ومجمع البيان ج1 ص488 وراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ج2 ص23 وتاريخ مدينة دمشق

مواجهة العدو، ولكنه يتحدث عن الذين يشاركون في تلك الحروب..

كما أنك إذا قلت: أهل مدينة كذا كرماء، أو بخلاء، فليس يعني ذلك: أنه ليس فيهم من ليس كذلك.

2 ـ ربما يكون من أسباب التعميم هنا الترغيب، فيما لو كان المورد مورد التنويه بصفة محمودة، فإن الثناء على أهل البلد من أجلها يُرغب سائر أهل البلد بالتحلي بها.

وقد يكون بهدف الحث على الإقلاع عنها، تجنباً للمذمة، إذا كان صفة ذميمة، كالبخل، أو الجبن، أو الفسق، وقد يكون لغير ذلك...

3 ـ إن الرواية المتقدمة عن أمير المؤمنين «عليه السلام» دلتنا على أن ما بعد «ثم» قد أكد على حصول العلم الوارد في الآية الأولى للذين ألهاهم التكاثر أمر حتمي، ولكنه لم يجعل حصول هذا العلم في القبر، بل جعله ـ بمعونة «ثم» الدالة على الفصل مع التراخي ـ بعد انقضاء البرزخ وحصول البعث.

وبذلك يظهر: أن كلمة «ثم» أفادتنا معنى جديداً يزيد على مجرد العطف..

ج4 ص13 و 14 وأسد الغابة ج1 ص29 وتهذيب الكمال ج1 ص229 تاريخ الأمم والملوك ج2 ص135 والكامل في التاريخ ج2 ص306 والبداية والنهاية ج3 ص340 وإمتاع الأسماع ج2 ص209 ودلائل النبوة ج3 ص258 والسيرة النبوية (عيون الأثر) ج2 ص422 والسيرة النبوية لابن كثير ج2 ص425 وسبل الهدى والرشاد ج4 ص46 وج7 ص46 والسيرة الحلبية ج2 ص344.

فيصح أن يقال بوجود معنيين، متعاقبين، ومختلفين، يتراخى أحدهما عن الآخر.

ولو كان التأكيد لفظياً، لكان هناك معنى واحداً يصرّ القائل عليه، كما لو أنه كرره على مسامعه.

حدة التهديد الإلهي:

وقد أشرنا فيما تقدم: إلى أنه قد يقال: إن نفس أن يعدّ الإنسان أمواله، أو رجاله، وأشرافه ليس في حدِّ ذاته أمراً خطيراً، يبرر هذه الحدة والشدة في التهديد الإلهي، فكيف نفسر ما ورد في هذه السورة من ذلك؟!

ونجيب للمرة الثانية:

أولاً: إن هذا التكاثر يؤدي إلى هدم المشروع الإلهي، والإطاحة بجهود الأنبياء، لأنه ينتهي إلى تقويض الأسس الاعتقادية، التي يقوم عليها التشريع، وتنطلق منها، أو تنتهي إليها القيم والأخلاق، ويُلحق ضرراً بالهيكلية العامة للحقائق الدينية، والمنظومات التشريعية والاعتقادية وسواهما.

حيث يفهم من الآيات التي بعدها في قوله تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾ التأكيدات المتلاحقة في أنهم كانوا في ريب من ذلك. مع عدم التزامهم بأمر الولاية أيضاً، وقد روي أيضاً: أن المراد بالنعيم في قوله: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ هو ولاية أمير المؤمنين «عليه السلام»..

مع أن الإيمان بالبعث والإيمان بالولاية ركنان أساسيان في الدين.

ومن الواضح: أن الأعمال لا تقبل بدون الولاية.. كما أن اختلال الإيمان بالبعث يؤدي إلى الإخلال بمعنى الألوهية.. إذ لو لم تكن هناك رقابة إلهية

على البشر كلهم، وإحصاء لكل كبيرة وصغيرة من أعمالهم، ولم يكن هناك حساب وعقاب، وجنة ونار، وقدرة على الجزاء وعلى العطاء، وعلى الإفقار والإغناء، وعلى التصرف في جميع الأشياء، فإن الإيمان بالألوهية يفقد معناه.. لأنه يكون إلهاً عاجزاً، فاقداً لمعنى الحكمة، والتدبير، وغير ذلك من صفات الألوهية والربوبية.

ويصير حاله حال موجود فاقد لليدين والرجلين، والعينين، والأذنين، واللسان، والعقل، والمشاعر، والقدرات كلها، والأحاسيس، والاختيار، ثم يقال عنه: إنه إنسان، مع أنه ليس فيه من صفات الإنسان سوى اسمه.

ومن المعلوم: أن إلهاً هذه هي حاله، وهذه هي صفاته وأفعاله ليس له أن يُشَرِّع صوماً، ولا صلاة، ولا حجاً، ولا غير ذلك، ولا يبقى معنى لطاعته أو عبادته.

فهذا الخلل الكبير هو الذي يدفع الإنسان إلى الاتجاه نحو التلهي بالكثرات، لأنه إذا فقد الإيمان بالبعث والحساب، وبالولاية، فإنه سيتجه نحو الكثرات في الأموال والأولاد، والرجال، وغير ذلك، لكي يأمن غائلة الجوع والعطش، والتعرض للحر والبرد، وليجد عندها الشفاء، ويتغلب بها على الأعداء، وتقضي له الحاجات، وتبلغه الغايات، وتحميه من الآفات، ويحل بها المشكلات، وينال بها الملذات والشهوات.

وتكون هذه الأموال وسائر القدرات والإمكانات في كثراتها صمام الأمان له، والملجأ له عوضاً عن اللجوء لله، والاستعانة به.

ومن البديهي: أن الإنسان الفاشل، الذي يشعر بالضعف والنقص، والعجز والجهل، والقصور، يلجأ إلى وسائل من خارج ذاته، لتنوب عنه في تحصيل مراداته، وتقريب غاياته.. وهذا يجعل الكثرات محبوبة له، ويؤكد رغبته التلهي بها.. فإذا فاخر آخرين، فإنما يفاخرهم بهذه الكثرات بالذات، جاعلاً منها وقاء له.

بل إنه حتى لو لم يلتفت الإنسان إلى ضعفه وعجزه، فإنه يلجأ إلى هذا التفاخر والتباهي بالكثرات، لإشباع أنانيته، وانسياقاً مع حبه الأعمى لذاته.

الفصل الثالث:

كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ..

كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ:

1 ـ وقد تكلمنا في ما سبق عن كلمة «كلَّا» فلا حاجة إلى الإعادة.

أما كلمة «لو»، فهي حرف امتناع لامتناع. أي أن الجواب قد امتنع لامتناع الشرط إذا كان مدخولها فعلاً ماضياً، وإذا كان مدخولها مستقبلاً كانت بمعنى: «إن»، وإذا كان فعلاً مضارعاً، فإنها تقلب معناه إلى الماضي.

وهي إذا دخلت على نَفْيَين جعلتهما ثبوتين، وإذا دخلت على ثبوتين جعلتهما نفيين، وإذا دخلت على ثبوت ونفي قلبتهما إلى نفي، وثبوت، وإذا دخلت على نفي وثبوت قلبتهما أيضاً.

فقوله: لو علمتم علم اليقين لما ألهاكم، فيكون حاصل المعنى: أنه ألهاكم، لأنكم لم تعلموا علم اليقين.

2 ـ وقد قال تعالى: «تَعْلَمُونَ»، ولم يقل: لو علمتم مثلاً. ولعل سبب ذلك: أنه يريد أن يقرر نفي علمهم في الماضي والحال، ثم في المستقبل، وربما إلى حين حصول الأمر الذي سوف يفاجئكم، وترون أنفسكم أمام واقع محرج لم تحسبوا له حساباً.. ولو قال: علمتم لفهم منه نفي علمهم في الماضي.

3 ـ وقد ذكرنا فيما تقدم: أن درجات انكشاف الواقع متفاوتة، فهناك انكشاف ظني.. وهناك انكشاف يرتقي بالظن ليصل إلى حد الاطمئنان، فلا

يُكترث بعد لاحتمال ضعيف وموهون، لعله يوازي اثنين أو ثلاثة بالمئة، فهذا الاطمئنان يتعامل الناس العاديون معه بكثير من التسامح، ويعتبرونه علماً، ويرتبون الأثر عليه..

وهناك انكشاف يقيني يكون هو المعتمد والمستند، وهو ما عبرت عنه الآية هنا بعلم اليقين..

وهناك درجة أرقى منه، وهي عين اليقين..

ودرجة أخرى تفوق الجميع، وهي درجة حق اليقين.

درجات العلم واليقين:

ولتوضيح درجات اليقين نقول:

نحتاج أولاً إلى معرفة اليقين، والعلم، فنقول:

1 ـ العلم: هو الانكشاف، وله درجات، كما قلنا آنفاً.

2 ـ اليقين: هو اعتقاد جازم بأمر بعينه، وهو أعلى درجة من العلم، لأنه انكشاف مع جزم واعتقاد.

3 ـ علم اليقين: هو أن تعلم بشيء، وتصل إلى درجة اليقين به من خلال الأدلة والشواهد، كما لو رأيت دخاناً من بعيد، فإنك تعلم بوجود نار. وكذا لو رأيت خيالاً من خلف جدار، أو خيالاً في الماء الصافي، فإنك تعلم بوجود صاحب الخيال في المكان، وكذا لو سمعت صوتاً من بعيد، فإنك تعلم بوجود صاحبه، أو سمعت خرير الماء، وغير ذلك..

فمعرفة وجود الشيء بآثاره، أو بلوازمه، أو كليهما، يقال له: «علم اليقين».. وقد ظهر: أن علم اليقين بالشيء لا يتضمن حضور الشيء، أو إدراكه بالحواس مباشرة.

4 ـ عين اليقين: أن تشاهد الماء الذي سمعت خريره، وترى الشخص الذي رأيت خياله في الماء، أو في المرآة، وتعاين النار، وغير ذلك.. فعين اليقين هو أن يصل الأمر إلى درجة الحضور عندك، فتشاهده، أو تسمعه، أو ما إلى ذلك، فيتعلق به الجزم واليقين.. فعين اليقين هو حضور نفس الشيء المتيقن به.

وقد يمكن توضيح الفرق بين علم اليقين، وعين اليقين، بالتأمل في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**(1).

فقد قال تعالى لإبراهيم «عليه السلام»: **﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾**؟! أي ألست متيقناً؟!

﴿قَالَ بَلَى﴾، أي أنا عالم علم اليقين، ولكنني أريد أن أنتقل إلى مرحلة عين اليقين.. فإن الشواهد والدلائل العقلية القاطعة قد أوجبت علم اليقين لإبراهيم «عليه السلام» بإحياء الموتى، فعقد إبراهيم قلبه على هذا الأمر المتيقن، والتزم به، وتبنّاه، وتحمل مسؤوليته..

____

(1) الآية 260 من سورة البقرة.

والإنتقال من علم اليقين إلى عين اليقين إنما يتحقق بتجسد هذا المعلوم أمام عينيه، فأمره الله تعالى بأمره، وأراه كيفية إحياء الموتى..

وقبل أن نتكلم عن المرحلة الثالثة، وهي «حق اليقين» نشير إلى أن في الأمور الاعتقادية الأساسية، مثل: التوحيد، والعدل، والنبوة، والجزاء على الأعمال.. وصفات الذات الإلهية، كالحياة، والقدرة، والعلم، وما إلى ذلك لا يكفي فيها الظن. بل لا بد من اليقين بها لكل مكلف.. استناداً إلى الأدلة والشواهد القاطعة، والبراهين الساطعة. وقد نعى الله تعالى على الذين يتبعون الظن، وبيّن أن هذا لا يقبل منهم، فقال: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[1].

5 ـ حق اليقين: ينتقل من مرحلة عين اليقين إلى مرحلة أرقى منها، كالذي يرى الدخـان أولاً، ثم يرى النار ثانياً، ثم يلقي نفـسه فيها ثالثاً، ليشعر بها بصورة أشد وأعمق.

كما أن من يرى الجائع يتلوى من الجوع، أو يرى من يتألم لمرض المّ به، أو يرى العطشان يعلـم بما رآه يكون علمه بـه هو عين اليقين، ولكن من يشعر بالألم والعطش، والجوع في داخله يكون يقينه به هو حق اليقين. أي أنه اليقين الذي جمع إليه سائر المراتب، وبلغ أقصى مداه.

لماذا لم يذكر حق اليقين؟!:

ويلاحظ هنا: أنه تعالى قد اقتصر في هذه السورة على علم اليقين، وعين

(1) الآية 36 من سورة يونس.

اليقين، ولم يتطرق إلى حق اليقين..

ولعل سبب ذلك: أنه ذكر عين اليقين، الذي يتجسد في رؤية الجحيم، في قوله تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾.. وحيث إن خطابه تعالى يشمل من لا يزالون أحياء، ومن سوف يولدون من الذين ألهاهم التكاثر.. وحيث إنه يريد بكلامه أن يدفعهم للتراجع عن غيِّهم، وأن يتوبوا إلى الله من هذا التلهي بالكثرات، فإن هذا وذاك لا يلائم تهديدهم بدخول النار، فلعل الكثيرين منهم يتراجعون ويتوبون.

أما اقتصاره على إخبارهم بأنهم سوف يرون الجحيم، فلا يلازم عذابهم فيها.. فبلوغ درجة حق اليقين هنا معناه: سد باب التوبة أمامهم، وهذا نقض للغرض من هذه السورة التي هي سورة تحذير، ودعوة، وهداية، وليست سورة انتقام، وعذاب ويأس.

تهويل الأمر:

إن سياق سورة التكاثر ابتداء من قوله: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ يعطي: أن المطلوب أمران:

الأول: حتمية حصول العلم لهم بهذا الأمر.

الثاني: بيان هول هذا الأمر، وخطورته، فكأنه قال: شيء عظيم وهائل سوف تعلمونه.. حتماً سوف تعلمون هذا الشيء العظيم.

الإنسجام بين الآيات:

قد يتوهم متوهم: أن قوله تعالى: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ**

تَعْلَمُونَ﴾ لا ينسجم مع الآيات اللاحقة، وهي قوله تعالى: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾، لأن آية ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾ تدل بسبب كلمة «لو» التي هي حرف امتناع لامتناع على أن علم اليقين لم يحصل لهم، لأنهم لم يروا الجحيم.

فما معنى أن يقول قبل ذلك: ﴿**كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ على سبيل الحتم والجزم.. والحال، أن حصول هذا العلم ممتنع، كما دل عليه قوله: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾؟!

ونجيب:

بأننا قدمنا: أن هناك فرقاً بين «علم اليقين»، الذي يستند إلى الدلالات والشواهد، كالعلم بالنار، استناداً لرؤية دخانها، وبين «عين اليقين» الذي يستند إلى رؤية النار مباشرة.

فمعنى الآيات يصير هكذا: إن المانع من حصول علم اليقين لكم هو إلهاء التكاثر لكم.. وهو سوف يستمر معكم إلى حين موتكم.. ولكنكم بعد ارتفاع هذا المانع ـ وهو التلهي بالكثرات، ظناً منكم أنها تشعركم بالأمان، وبأنها تحل مشاكلكم ـ بسبب الموت الذي يجعلكم تشاهدون الجحيم عياناً، فتكون هذه المشاهدة هي «عين اليقين».

والتأكيدات الكثيرة التي تريد ترسيخ اليقين قد جاءت حين الحديث عن رؤية الجحيم، وما بعدها.. لتؤكد: أن رؤيتكم لها سوف لا تقتصر على مجرد مشاهدة آثارها، أو لوازمها، بل سوف ترونها حقيقة، وبصورة مباشرة.

لا يعذر من لا يعلم؟!:

وقد يتوهم متوهم، فيقول: إنه إذا كانت الآيات تقرر: أن هؤلاء الذين يلهيهم التكاثر لا يعلمون بوجود بعث، وجنة، ونار، فيفترض أن يكونوا معذورين في لجوئهم إلى الكثرات للتلهي بها، فلماذا هذا التهديد والوعيد لهم في هذه السورة؟!

بل قد يقال: إن علمنا بالبعث يمتنع علينا بسبب التكاثر، أو لأي سبب آخر، فلا موقع للملامة، ولا قبح العقوبة، ولا مجال للتهديد بها، لأنه لوم وعقوبة على أمر غير مقدور.

ونجيب:

أولاً: إن التكاثر إذا كان مانعاً من العلم بالبعث، والحساب، والجنة، والنار، فإن الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، فبالإمكان الكف عن التكاثر، ليعلم بما يجب أن يعلمه، ويلتزم بمقتضياته.. لاسيما وأن هذا التكاثر لا مبرر له لا عقلاً، ولا شرعاً، وإنما هو أمر موهوم، لا يصح اللجوء إليه، ولا الاعتماد عليه..

فمثلاً لقد حرَّم الله تعالى على الإنسان أن يقتل نفسه، فلو ألقى بنفسه من شاهق، فإن حرمة الارتطام بالأرض المؤدية لموته لا تزول بهذا الإلقاء، بل يعاقب عليها، وهو قبل أن يصل إلى الأرض.. وإن كان عاجزاً عن امتثال النهي، ولكنه هو الذي تسبب بهذا العجز.

والامتناع بالإختيار لا ينافي الاختيار.

ولو أنك لم تعتمد على الكثرات بالأموال والرجال، والأولاد وسواها..

وأنت مدرك لحقيقة أنها أمر موهوم، وفكرت بالأمر قليلاً، والتمست الآثار والشواهد، وتمعنت في كلام الأنبياء والأوصياء لعرفت أن ثمة بعثاً وحساباً، وجنة وناراً.

ثانياً: كيف نتصور معذورية هؤلاء الناس في جهلهم، والعقل لم يزل يقول لهم، والأنبياء ما زالوا يؤكدون لهم على بوار هذا المسلك، وهم يرون معجزاتهم، الشاهدة بصدقهم، وبأنهم لا ينطقون عن الهوى؟!

على أن القليل من التأمل والتفكر بتجرد وإنصاف لا بد أن يؤدي ـ كما قلنا ـ بالإنسان العاقل إلى هذه الحقيقة ويرشده إليها..

ثالثاً: إن نفس قوله: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ يشير إلى أن هذا المانع من التفكر بالآخرة وهمي ومصطنع.. فهل يصح أن يكون الموهوم والمصطنع مهيمناً على الحقائق الأصيلة والراهنة، وطاغياً عليها، ومفسداً لها؟!

وكيف يرضى الإنسان العاقل والمتوازن والمسؤول أن ينساق مع الأوهام، ويستغرق فيها على حساب الحقائق والثوابت؟! أليس هذا من السفه المقيت، الذي يأبى الإنسان العاقل أن يجد نفسه فيه؟!

رابعاً: إن قوله تعالى: ﴿**حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ يشهد أيضاً بما نقول.. فإن من يزور المقابر ليعدّ من فيها من أشراف وأكابر وفرسان، ورجال، وأهل عشيرة، وما إلى ذلك، ألا تأخذه رهبة الموت، ويخطر في باله: أن هؤلاء الذين يعدّهم لم تنفعهم كثرتهم، ولا رجالهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، ولا جاههم، ولا قوتهم البدنية، ولا عبقرياتهم، ولا.. ولا.. الخ..؟!

ومن يتكاثر بهم يدرك: أن كثرات هؤلاء لم تمنع عنهم الأمراض، ولا الآفات، ولا الموت والفناء.. فإن الذين يعدّهم كانت لهم كثرات يتكاثرون ويتفاخرون بها.. فما يراد له الثبات والتأثير في صلاح الحياة هو بنفسه ينفي نفسه، فكيف إذا كان في حقيقته لهواً موهوماً؟!

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ:

ليس المراد بالجحيم مطلق النار، بل هي النار الشديدة التأجج، وفي بعض النصوص: أنها نار عظيمة تكون في مهواة، كالوادي، والحفرة..

وهذا النوع من النار فيه عذاب من عدة جهات، فمثلاً:

1 ـ النار بما هي نار تخيف من يراها، ويراد إلقاؤه فيها.

2 ـ إن شدة تأججها ترعب الناظر إليها، ولاسيما المجرم الذي يعرف أنه سيكون بها مقره ومقامه.

3 ـ إن النار العظيمة لها رهبة أيضاً.

4 ـ يزيد خوف المجرم منها إذا كانت في مهواة يجتمع فيها الخوف من النار، مع الخوف من الهوي، الذي لا يعرف مداه، ولا يدري ما هي آثاره على من يهوي فيه.

فاجتمعت المخاوف على المجرم من عدة جهات هي:

أولاً: الخوف من ملامسة النار للجسد.

ثانياً: الرعب النفسي الناشئ من النظر والمشاهدة والتوقُّع.

ثالثاً: ضخامة وعظمة هذه النار، أو معاينة كميتها.

رابعاً: معاينة أحوالها في تأججها.

خامساً: الخوف من الهوي فيها، لجهالة ما ينتهي إليه، وما يحدث له.

سادساً: ويزيد عذابه حين يعرف أنه سوف يفقد الاختيار والسيطرة على نفسه في هويّه هذا.

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ:

وحين نصل إلى قوله تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ**﴾. يواجهنا سؤال يقول: كيف تكون الرؤية عين اليقين؟!

ونجيب:

بأن عين اليقين توصيف للرؤية التي اسْتُلَّتْ من قوله تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّهَا**﴾. أي أنكم لترون الجحيم رؤية، ليس فقط توجب اليقين لكم، بل تتحول عن كونها يقيناً لتصبح تجسيداً للمرئي، ويصبح تجسدها في الرؤيتين عين اليقين بالجحيم.

فهو من قبيل قيام المسبب مقام السبب، فالرؤية هي السبب، واليقين مسبب عنها، فجعل الرؤية ليس فقط قائمة مقام اليقين بالجحيم، بل تتجسد الجحيم فيها، وتصبح الرؤية هي عين اليقين بها، لشدة ظهور، وحضور الجحيم، وتجسدها في هذه الرؤية.

للرؤية مراتب:

إن قوله تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ**﴾، ثم قوله بعدها: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ**

الْيَقِينِ﴾.. يثير أمام الناظر سؤالاً آخر أيضاً يقول:

إن الجمع بين الآيتين يدل على أن مشاهدة الشيء لا تعني بلوغ درجة عين اليقين، لأن الرؤية الأولى لو كانت توجب عين اليقين لم يحتج إلى التأكيد عليها في الآية الثانية.. فإما أن يكون القول بأن رؤية الشيء هي عين اليقين غير دقيق، أو يكون للرؤية مراتب، تكون إحداها هي عين اليقين، دون المراتب الباقية.

ونجيب:

بأن هذا الأخير هو الصحيح، فإن الرؤية قد تكون للشيء، أو الرجل، أو المنزل، فيراه من بعيد.. على شكل شبح غير واضح المعالم، فيحتمل، أو يظن ظناً ضعيفاً، أو قوياً: أن ما يراه رجل، أو يظن أن هذا الذي يراه منزل فلان، فهذه رؤية، ولكنها ليست عين اليقين..

وقد يقال: لكي يصبح هذا الظن يقيناً بأن هذا الذي يراه هو فلان جزماً، وأن هذا هو منزله يقيناً.. قد يستدل عليه ببعض الشواهد التي ترفع هذا الظن عنده إلى درجة اليقين، كما لو كان قد أخبر عن أن هذا الشخص قد ركب الطريق الفلاني الذي يراقبه الراؤون، وقد يتجاوز هذه المرحلة بسبب شدة قرب ذلك الشبح منه، ومشاهدته لتقاسيم وجهه، وبعض خصوصياته وحالاته.. فيصل إلى عين اليقين.

ولأجل ذلك نلاحظ: أن تفاعل الإنسان مع هذا المرئي يختلف من حالة لأخرى، فرؤية النار من بعيد كشبح ليس لها من الآثار على الرائي كما لو كانت أمامه يرى عظمتها وتأججها، ويسمع زفيرها، ويعاين الهوة التي تخرج منها.

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا:

ويلاحظ: أن كلمة «ثم» تكررت مرتين بعد قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. فهل هناك فاصل زماني للرؤية الأولى للجحيم، عن الرؤية الثانية لها، تكون هي عين اليقين؟!

وكيف نتصور هذا الفاصل الزماني بين الرؤيتين؟!

قد يقال في الجواب: إن هذا الفاصل يتصور على نحوين:

الأول: ما قدمناه من تدرُّجِيَّة الرؤية في إفادتها لليقين، بدءاً من رؤية الشبح وانتهاء برؤية الشيء بكل دقائقه أمام الرائي.

الثاني: وقد يكون الفاصل بين الرؤية اليقينية، والرؤية التي هي «عين اليقين» كبيراً، فيراه في المرة الثانية في البرزخ..

ويمكن أن يكون ذلك يوم القيامة..

قد يتوهم البعض: أن الرؤية للجحيم في البرزخ تكاد تكون غير ممكنة.
ونجيب:

ألف: بأن ذلك قد يكون على سبيل التمثل.. حيث إن هذا التمثل قد لا يكون في القوة والظهور بدرجة النار الحقيقية، التي تكون يوم القيامة، بل هو صورة مصغرة عنها، يراد بها تقريب المعنى إلى الذهن.

ب: أن يعاين طرفاً من النار الحقيقية في القبر، فقد ورد أن بعض العصاة

من الأموات يفتح لهم باب، أو كوة على النار في القبر[1].

ج: أن يرى آثار النار في البرزخ بأشكال مختلفة، مثل العقارب والحيات[2]، أو يكون قبره حفرة من حفر النيران في توهجه، وأذاه له.. كما روي أيضاً[3].

فيكون كمن يدوس بأقدامه على مكان كانت فيه نار، ثم أزيلت عنه.. فهو يشعر بآثار النار، ويعاني منها ولا يرى شخصها..

لماذا «ثُمَّ»؟!:

قلنا: إن كلمة «ثم» قد تكون ناظرة لهذه الموارد التي يحصل فيها اليقين بصورة تدريجية.. وقد يكون المراد هو البرزخ أولاً، ثم يوم القيامة ثانياً..

ويحتمل أن لا يقصد بكلمة «ثم» الفاصل الزماني، بل مجرد تأكيد الجملة

---

(1) الأمالي للصدوق ص366 وروضة الواعظين ص297 وبحار الأنوار ج6 ص223 والبرهان (تفسير) ج5 ص275 ونور الثقلين (تفسير) ج5 ص230 والمصنف للصنعاني ج3 ص591 .

(2) الأمالي للصدوق ص 513 ومن لا يحضره الفقيه ج4 ص12 وروضة الواعظين ص462 وبحار الأنوار ج76 ص29 وج72 ص389 وج73 ص332 وج76 ص29 و 90 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص428.

(3) إعانة الطالبين ج2 ص144 والإختصاص للمفيد ص347 وبحار الأنوار ج8 ص209 وج58 ص90 وألف حديث في المؤمن ص301 ومجمع الزوائد ج3 ص46 والترغيب والترهيب ج4 ص238 وتخريج الأحاديث ج1 ص251 ونور الثقلين (تفسير) ج3 ص553 وكنز الدقائق (تفسير) ج9 ص214.

الأولى بالثانية..

فتكون كلمة «ثم» لإفادة الترتيب الذِكري، لا الترتيب الزماني.

على أن يكون الداعي إلى هذا التأكيد اللفظي هو الدفع نحو التأمل والتفكر، بهذا المصير الذي سيواجهه المتكاثرون، وما فيه من مخاوف وأهوال.

وتكون فائدة كلمة «ثم» توفير فرصة للتأمل والإعتبار.. كما أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.. يهدف إلى المزيد من الحثّ على مراجعة الحسابات.

الإقتصار على مجرد الرؤية:

وقد تقدم: أنه تعالى اقتصر على ذكر رؤية المتكاثرين للجحيم، ولم يذكر أنهم سوف يدخلونها، بالرغم من أن التهديد بذلك أبلغ من الزجر.

ولعل السبب في ذلك: أنه تعالى يريد أن يُبقي على الأمل حياً في نفوس المتكاثرين بقبول توبتهم، وعودتهم إلى الصراط المستقيم، والتسبب لهذه التوبة والهداية إلى الحق، هو من أشرف الغايات لهذه السورة المباركة..

وقد روي عن الإمام علي «عليه السلام» أنه قال: «من اعتدل يوماه، فهو مغبون»[1].. فالإنسان العاقل هو الذي يعمل على أن يكون يومه أفضل من أمسه، وغده أفضل من يومه.

---

(1) بحار الأنوار ج68 ص181 ومعاني الأخبار ص198 وأمالي الصدوق ص352 وأمالي الشيخ الطوسي (ط سنة 1401 هـ.ق) ص447 وأعلام الدين ص303.

لماذا لم يذكر الجنة؟!:

قد يدور بخلد البعض: أن يسأل عن سبب اقتصار هذه السورة على الوعيد والتهديد، والترهيب بالحساب والعقاب، ورؤية الجحيم، ولم تذكر شيئاً عن الجنة ونعيمها، ومقاماتها مع أن الترغيب قد يكون مؤثراً في الهداية أيضاً، كالترهيب، فكيف إذا اجتمعا؟!

ونجيب:

بأنه تعالى إنما يريد أن يعالج مشكلة تحتاج إلى أسلوب الردع والزجر أكثر من غيره، لأن المفروض أن الناس مستغرقون في التكاثر فيما يزيدهم تعلقاً بالدنيا، وصدوداً عن الآخرة، فلا بد أولاً من سلخهم عنها، بهذه الزواجر الحادة.

مع العلم: بأنهم يدركون وجود الجنة، ولكنهم يصدفون عنها، ويؤثرون النعيم الحاضر القريب على لذة يوعدون بها.. وهذا ما يفسر لنا: أنه لم يذكر لهم دخول النار، بل ذكر أنهم سيرون هذه النار، وما لها من حالات مرعبة.

ولهذا كثرت الروادع والتأكيدات لها، مع أنه تعالى قد لوَّح لهم بالنعيم الذي ضيَّعوه في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾.

الفصل الرابع:

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ..

أسئلة تحتاج إلى أجوبة:

ختم سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾.

واللافت هنا: أمور عديدة تحتاج إلى بيان، مثل:

1 ـ إنه تعالى كان يتحدث عن رؤية الجحيم، ولكنه بالنسبة للنعيم ذكر أنهم سوف يسألون عنه فقط!!

2 ـ لماذا يأتي هذا السؤال بعد فاصل زماني، أشير إليه بكلمة: «ثم».

3 ـ ما المراد بالنعيم؟!

4 ـ ما الربط، أو فقل ما فائدة ذكر السؤال عن النعيم في أجواء الوعيد والتهديد على التكاثر؟!

5 ـ هل النعيم الذي يُسألون عنه بديل عن حالة التلهي بالكثرات والتباهي بها؟!

6 ـ لماذا أخَّر السؤال عن النعيم عن رؤية الجحيم؟!

7 ـ لماذا ذكر النعيم، ولم يقل: لتدخلن الجنة مثلاً؟!

ونجيب بما يلي:

لماذا أخر السؤال عن النعيم؟!:

ونبادر إلى الإجابة عن سبب تأخير السؤال عن النعيم، فنقول:

من الواضح: أن من هيمنت عليه الدنيا، وألهاه التكاثر فيها عن كل ما هو مصيري، وحساس، وغرق في بحار الأهواء والشهوات، يحتاج إلى ردع قوي وحازم، ويحتاج إلى أن يريه الله الجحيم قبل أي شيء آخر، ليعود إلى رشده، أو يواجه هذا المصير الذي اختاره هو لنفسه.

أما الإنسان المؤمن والمتوازن، فلا يهتم لزبارج الدنيا وبهارجها، بل هو يبحث عن النعيم الذي يحقق له ما يرضاه الله تبارك وتعالى لعباده.

ما هو النعيم؟!:

1 ـ أما النعيم الذي سوف يُسأل الإنسان عنه، فقد قيل: إنه نعمة السلامة والأمن.

وقيل: هو جميع النعم، كالمآكل والمشارب، والمشمومات، والملموسات، والمسموعات، والمرئيات، ولذة الجنس، والمال، وما إلى ذلك.

وقيل: هو القوت من الطعام والماء البارد.

وقد روي: أن الإمام الصادق «عليه السلام» قال لأبي حنيفة: ما النعيم عندك يا نعمان؟!

قال: القوت من الطعام والماء البارد.

فقال له «عليه السلام»: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه، يسألك

عن كل أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه.

قال: فما النعيم جعلت فداك؟!

قال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد ما كانوا مختلفين، وبنا ألف الله بين قلوبهم فجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءاً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع.

والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي «صلى الله عليه وآله» وعترته «عليهم السلام»[1].

والرويات عن أن أهل البيت «عليهم السلام» هم النعيم كثيرة.

2 ـ وهنا ملاحظة لا بأس بالنظر إليها، وهي: أن أكثر لذَّات الجسد تنقضي وتتلاشى بمجرد الاستفادة منها، والتعاطي مع مناشئها، ثم سرعان ما يتبلور لدى المستفيد شعور جديد بالحاجة إليها، فيستأنف السعي إليها، وهكذا.. وقد تتضاءل لذتها مع التكرار الكثير لها.

واللذة الحقيقية هي لذة باقية لا تزول، حتى لو كان للجسد مشاركة

(1) تأويل الآيات الظاهرة ج2 ص852 ومستدرك الوسائل ج16 ص247 و 249 وبحار الأنوار ج10 ص209 وج24 ص49 و 59 وج63 ص315 وج70 ص70 ومجمع البيان (تفسير) ج10 ص433 والبرهان (تفسير) ج5 ص749 ونور الثقلين (تفسير) ج5 ص663 وكنز الدقائق (تفسير) ج14 ص421 و 426 وغاية المرام ج3 ص81 و 85.

فيها، وسرُّ بقائها هو تمازجها مع ما فيها من لذة روحية تمازج لذة الجسد، كما في لذة السعي في حاجات المؤمنين، أو تتمحض في التخلي عنه، كما في لذة القرب من الله تعالى، ولذة الرضوان الإلهي، فقد قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1].

نعم.. هو أكبر من أي لذة جسدية، أو غيرها، لأنها تتصل بالمطلق، واللامتناهي، والباقي.. فتكتسب منه هذه الصفات.

ويمكن أن نختصر التعبير عنها: بأنها لذة الواجدية التي لا فقد معها.

لماذا لم يذكر الجنة؟!:

أما بالنسبة لعدم ذكر دخول الجنة، أو رؤيتها، أو السؤال عنها، فقد ذكرت السورة الشرط الأساس، الذي تُنال به الجنة، لأن مجرد عدم التلهي بالتكاثر لا يوجب دخول الجنة، حتى لو اعتقد بالتوحيد، وبصفات الله، واعترف بالنبوّات، وآمن بالبعث والحساب، والجنة والنار، وصام دهره وقام ليله، وأدى الحقوق المالية، وواظب على الحج والعمرة طيلة حياته، وعمل بكل ما طلب منه، وتصدق بجميع ما يملك، أو جاهد في سبيل الله، وقتل، فإنه إذا لم يجب على السؤال عن النعيم بما أمره الله تعالى، فإن ذلك كله لا ينفعه، ولا يخوله دخول الجنة، بل لا يخوله أن يراها، إلا على سبيل نظرة الحسرة والخيبة.. ولا يراها رؤية مستأنس ومتلذذ بها وبجمالياتها.

(1) الآية 3 من سورة المائدة.

وإن أجاب على السؤال عن النعيم ـ وهو ولاية علي وأهل بيته «عليهم السلام» بما هم أئمة هداة تجب موالاتهم، ومودتهم، وطاعتهم ـ جواباً صحيحاً، فإنه يدخل الجنة، ويتبوأ منها حيث يشاء، بقدر ما تمنحه إياه أعماله الصالحة.

نعمة الولاية:

وقد تمت النعمة الإلهية على البشر بإبلاغ أمر الولاية يوم الغدير لهم، حيث نزل قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً**﴾[1].

ونعمة الولاية ليست لذة جسدية كالطعام والشراب وسواهما، بل هي نعمة معنوية.. قوامها الشعور بالواجدية لكل الهدايات والنعم، وكل شيء من خلال الفوز بالرضوان والقرب الإلهي.

وهذا ما بينته الرواية المتقدمة عن الإمام الصادق «عليه السلام» فيما قاله لأبي حنيفة.

وتوضيح ما نرمي إلى بيانه:

أنه يُنظر إلى الولاية ودورها وأثرها في ثلاثة اتجاهات أساسية.. ينتج عنها حفظ جميع النعم الجسدية والروحية والإيمانية، ويتم توظيفها في الاتجاه الصحيح في مسيرة البشر الكادحة نحو الله تعالى. وذلك أن مختلف أنواع النعم إنما يحفظها ويبقيها، ويزيدها، وينميها، ويوصلها إلى كمالها، ويبارك فيها: أن

---

(1) الآية 3 من سورة المائدة.

تتمازج مع نعمة ولاية أهل البيت «صلوات الله عليهم» بدءاً بأمير المؤمنين «عليه السلام»، وانتهاءاً بالحجة المنتظر، وارث الأنبياء والمرسلين «صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين».

وقد أشار الإمام الصادق «عليه السلام» إلى هذه الأمور الثلاثة فيما قاله لأبي حنيفة، وهي كما يلي:

الأمر الأول: نعمة الائتلاف بعد الاختلاف.. وفي هذه النعمة ملذات عديدة، وثمرات جليلة نلقي عليها بعض الضوء، فنقول:

أولاً: إن الائتلاف بعد الاختلاف أمر يبهج النفس، ويؤنسها، ويمنحها درجة من الرضا، والطمأنينة، فلا قلق ولا خوف.

ثانياً: في الاختلاف مساوئ لا يحسن بالعاقل أن يمارسها، أو أن يجد نفسه في أجوائها.. ففي الاختلاف الريب والشك في مقاصد من تختلف معه، وانعدام ثقتك به، حتى إنه لو جاءك بهدية تجد نفسك متردداً مرتاباً متسائلاً عن أهدافه من هذه الهدية..

وهذا يؤدي إلى الضياع في متاهات لا نور فيها، ويجعل الإنسان في ردَّات فعله في معرض الوقوع في الأخطاء الجسيمة، والمآزق الأليمة.

ثالثاً: في الاختلاف يبغض المؤمن أخاه، ويبغي له الغوائل.. الأمر الذي يغضب الله، ويهدم البنية الاجتماعية، ويثبط، بل يمنع من التعاون في المصالح العامة، ويوجب التضييع والفساد المريع.

رابعاً: الإختلاف يؤدي إلى الفشل، وذهاب القوة، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا**

فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(1)، والمؤمن يقوى بأخيه، والأمة تقوى بمعاضدة بعضها بعضاً.

خامساً: إن أجواء الاختلاف المسمومة تفسح المجال للغيبة، والبهتان، والنميمة، ويهيء لإثارة الفتن، ويضعِّف مناعة المؤمن أمام وسوسات شياطين الأنس والجن، وأن تكون مشاعره هي المهيمنة عليه لا عقله.

الأمر الثاني: ذكر الإمام الصادق «عليه السلام» لأبي حنيفة: أن أهل البيت «عليهم السلام» هم الذين يؤلف الله بهم بين قلوب المؤمنين، ويجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءاً. أي أن تولِّيهم «عليهم السلام»، والأخذ منهم، والطاعة لهم، تقلب الأمور رأساً على عقب، وتنقل الإنسان من كونه عدواً للآخر ليصبح أخاً له في الدين، أو نظيراً له في الخلق، كما روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» أيضاً.

وهذه الأخوة تمنح الإنسان العزة، وتمنحه الشعور بالقوة، كما أنه يشعر بأن لديه ناصر ومعين، وتشعره بالحنان، والحنين، والمحبة، ويشعر بالأنيس الموافق، والجليس اللائق..

الأمر الثالث: إنهم «عليهم السلام» هم الهداة إلى دين الله، فقد قال الإمام الصادق «عليه السلام» لأبي حنيفة: «وبنا هداهم الله للإسلام».

وهذه أعظم النعم وأجلّها لجميع البشر، وهي تعطي الطمأنينة إلى سلامة المسيرة والمسار نحو الهدف الأقصى.. وتكرِّس ضمان عدم الخطأ، وعدم

(1) الآية 46 من سورة الأنفال.

التواكل، والتلكؤ في أية لحظـة، وفي أي شيء.. لأن من يسير في ظل الهداية الربانية يدرك أنه على حق في كل ما يقول ويفعل.

وأنه يسير نحو السعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

شرط قبول الأعمال:

ونختم كلامنا حول الولاية بالإشارة إلى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

حيث قد يتوهم متوهم: أن هذه الآية قد نزلت قبل حوالي سبعين يوماً من استشهاد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكان «صلى الله عليه وآله» قد بلَّغ الدين كله، بعقائده وأحكامه، وسياساته، وأخلاقه، وكل حقائقه، فكيف يقول له الله تعالى: ﴿**وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ مع أنه «صلى الله عليه وآله» قد بلَّغها؟!

ونجيب:

بأنه تعالى يريد أن يقـول: إن جميع حقائق الـدين، وأحكامه، وقيمه، وأخلاقه، وعقائده، وسياساته، وتوجيهاته، ومفاهيمه ستكون غير مقبولة لديه إذا لم تتمازج مع نعيم الولاية..

فالتوحيد بدون الولايـة لا يـؤدي إلى الجنة.. والنـبوة، والشـفاعة،

(1) الآية 67 من سورة المائدة.

والقيامة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج بدون الولاية لا يفيد، ولا يحقق الغرض المنشود، ولا يوصل إلى شيء.. وفيه روايات كثيرة تدل على هذا المعنى، فمن أراد، فليراجع كتاب وسائل الشيعة الجزء الأول، والكافي الجزء الأول أيضاً.

فيكون الإسلام بدون ولاية أهل البيت «عليهم السلام» بمثابة جثة بلا روح، كل أجهزتها معطلة، فإذا دبّت فيها الروح صارت اليد تتحرك، وصارت العين ترى، والأذن تسمع، واللسان يتكلم، والقلب ينبض، وصار له عقل وأحاسيس، ومشاعر.. وصار يحب ويبغض، ويجبن ويشجع، أو يحسد ويحقد، ويعلم ويجهل، ويصح ويمرض، ويحفظ وينسى، وصار لديه قوة، وطاقة جنسية، وما إلى ذلك..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله..

كلمة أخيرة:

وفي الختام نقول:

إن القرآن الكريم كتاب الله المنزل لعباده، وقد خوطب به النبي «صلى الله عليه وآله» وأهل بيته الطاهرون.. فهم الذين يعرفون حقائقه، ويظهرون كنوزه ودقائقه.. وليكون هم الذين يفسرونه، وهم الذين يعلمون تأويله..

أما نحن، فمتطفلون وطارئون، وليس أمامنا سوى الاعتراف بالعجز، والجهل، والقصور..

فكيف إذا كنَّا من المذنبين، الذين تحجبهم ذنوبهم عن معاني القرآن، وعن أهدافه ومراميه؟!

نسأل الله تعالى أن يطهِّر قلوبنا، وأن يزكِّي أعمالنا.. إنه ولي النعم.. بحق سيد العرب والعجم وأهل بيته الطيبين الطاهرين «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

عيثا الجبل (عيثا الزط سابقاً)

10/ شهر رمضان/ 1437 هـ.ق.

2016/6/16 م. ش.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفهرس